هوامش

لم تكن المدارس في الجزائر، في زمن الأبيض والأسود، تغفل في بداية كلّ عام دراسي عن التقاط «الصورة المدرسية»، إذ كانت مناسبة يستعد لها التلاميذ بارتداء أجمل ما لديهم كأنّه يوم عيد

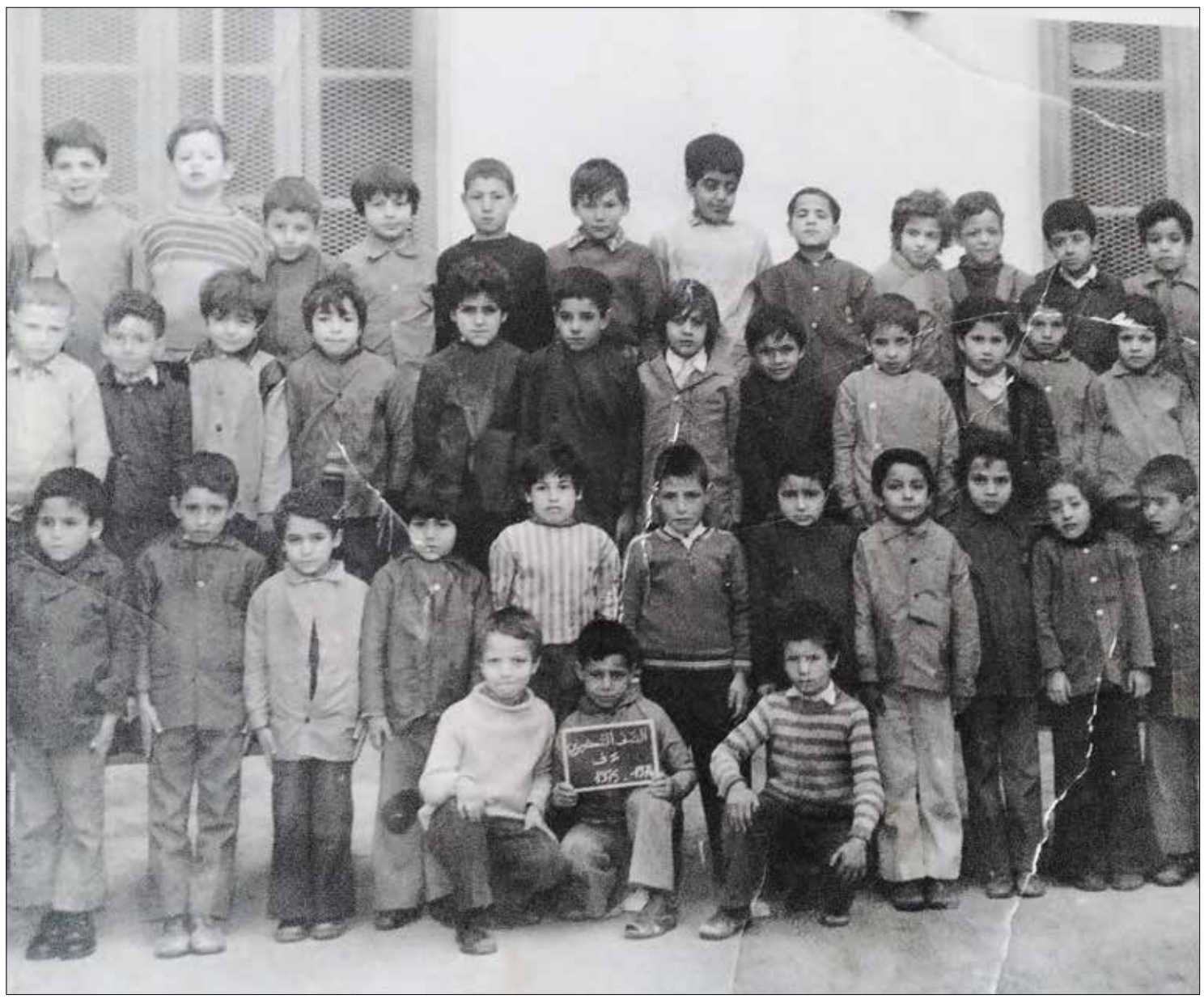

زمن جميل لن يعود (العربي الجديد)

الصورة المدرسية

ذكريات الأبيض والأسود في الجزائر

الجزائر ـ **فتيحة زماموش**

في عقود ماضية، كانت «الصورة المدرسية» السنوية في الجزائر حدثاً محتفىً به. وعندما يحين موعدها يستعان بمصور محترف يجوب المدارس لالتقاطها، إذ كان يخصَّص يوم لالتقاط هذه الصورة الجماعية التي تظهر بالأبيض والأسود للمتعلمين في كلّ فصل دراسي. لكن بمرور الزمن، غابت هذه الصورة بطقوسها المتكاملة، وغابت الصورة الورقية عموماً، تاركة المجال للرقمي بما فيه من سيلفي وغيرها.

يحتفظ سليمان مسيعد (54 عاماً) بين دفتي ألبوم الصور القديمة التي تعود لسنوات السبعينيات والثمانينيات، بصور مدرسية التقطت له في المدرسة مع زملائه برفقة المعلم الذي تولى تعليمهم طوال ست سنوات في المستوى الابتدائي. هذه الصور باتت اليوم عبارة عن «كنز تاريخي يؤرخ لزملاء الدراسة ومعلمي الذي ما زلت أتذكره وأزوره في منطقة الحامة، بولاية خنشلة شرقي الجزائر». يتذكر الدكتور مسيعد، وهو يتحدث إلى «العربي الجديد» تلك الفترة التي يصفها بالذهبية، ويتذكر معها كلّ زملائه، بأسمائهم وألقابهم، وشغبهم في القسم حينها، ويقول: «تلك أيام لا تنسى بحلوها ومرها، صار زملائي اليوم كوادر في اختصاصات عدة، ولا نلتقي، لكنّنا يتذكر بعضنا البعض بأدق التفاصيل التي جمعتنا في الماضي». من سبعينيات القرن الماضي حتى منتصف التسعينيات، كانت المدارس تلجأ إلى مصور محترف لالتقاط صورة بالأبيض والأسود، لكلّ قسم مع معلمه، يُكتب قبل ذلك على لوحة اسم القسم والسنة والفصل، ويتولى أحد التلاميذ رفعها خلال التقاط الصورة، فيما يتجمع التلاميذ في صفوف متناسقة، وعلى يمينهم المعلم. لاحقاً، تجمع إدارة المدرسة الصور الفوتوغرافية في ألبوم مدرسي. كان المصوّر المحترف يجوب المدارس وهو يحمِل على كتفه حقيبة فيها كاميرا من نوع «كوداك». بابتسامته العريضة، يتذكر عبد السلام حيور، متحدثاً إلى «العربي الجديد»، أنّه طلب من والده مبلغاً مالياً، طلبته منهم إدارة المدرسة، لأنّ المصور سيأتي إلى مدرستهم في اليوم التالي: «المبلغ المطلوب هو ثمن الحصول على نسخة من الصورة، وقد كنا نطلق على المصور اسم: رجل كوداك، نسبة إلى العلامة التجارية لآلة التصوير الشهيرة آنذاك». يضيف: «كان مجيء المصور يضفي على المدرسة فرحة من نوع خاص وسعادة منقطعة النظير، وغالباً ما كان يلتقط صور التلاميذ في آخر يوم من الأسبوع المدرسي، أي الخميس».

يتذكر الأستاذ مهدي مخلوفي في حديثه إلى «العربي الجديد» تلك اللحظات أيضاً بكلّ تفاصيلها، ويقول: «كنا نجهز أنفسنا لموعد التقاط الصورة الجماعية، وعندما تبلغنا المعلمة بإحضار 20 ديناراً معنا، ثمناً للصورة، يغمرنا الفرح. كنت أحب التقاط صورة مع زملائي في القسم، لكنّني لم أكن أفضّل حمل اللوحة التي يكتب عليها القسم والسنة الدراسية ببساطة لأنّها ستمنع ملابسي الجميلة التي ألبسها خصيصاً لهذا اليوم من الظهور بوضوح في الصورة الفوتوغرافية وكذلك ملامح وجهي».

بعد سنوات، صار التلاميذ في الصورة أطباء وحملة شهادات دكتوراه وأساتذة ومهندسين، بعضهم يأخذه الحنين لتلك الصورة بكلّ ما تحمله من ذكريات وحنين إلى زمن جميل ورفاق أيضاً. قبل فترة، طرح ناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي فكرة «ما تنساش اللي قريت معاه» أي لا تنسَ من دَرس معك. الفكرة عبارة عن محاولة لاستعادة الزمن والعثور على زملاء الدراسة، حتى يعود حبل الوصال بعد الانقطاع، من خلالها تمكّنوا من التواصل مع عشرات من زملائهم خلال سنوات المدرسة الابتدائية: «البعض منهم ما زالوا في تواصل، والبعض الآخر انقطعت بهم السبل والأهداف وظروف الحياة».

وساعد الفضاء الافتراضي كثيراً من الجزائريين في الالتقاء مجدداً بزملاء المدرسة، إذ يكفي نشر صورة قديمة لهم في الصف الابتدائي وكتابة بعض تفاصيلها للبحث عن التواصل مع الزملاء السابقين، فقد نشر فريد دحماني من ولاية سطيف شرقي الجزائر صورته على صفحته على مواقع التواصل الاجتماعي وأردفها بإعلانه: «البحث عن زملاء فترة الحنين والحرمان في آن واحد». كذلك، نشطت مبادرة أخرى بعنوان «أين أنا في الصورة؟»، إذ ينشر بعضهم صورته المدرسية القديمة، ويقيم منافسة بين أصدقائه للتعرف إليه وهو في سن صغيرة بين مجموعة من زملائه التلاميذ. هذا ما فعله الشاعر نذير طيار، في صورة مدرسية له مع زملائه تعود إلى عام 1974، عندما كان في السنة الابتدائية الأولى في مدرسة «محمد الشريف منتوري» في باب القنطرة، لكنّ كثيرين لم يتمكنوا من التعرف إليه. وعلّق صديقه حمزة فردية: «لم أعرفك في الصورة، لكنّي متأكد أنّ من بين هؤلاء التلاميذ يوجد شاعر ورياضي اسمه نذير طيار، ذو تربية وأخلاق».

باختصار

كانت المدارس تلجأ إلى مصور محترف لالتقاط صورة بالأبيض والأسود، لكلّ قسم مع معلمه.

■■■

لم أكن أفضّل حمل اللوحة التي يكتب عليها القسم والسنة الدراسية ببساطة، لأنّها ستمنع ملابسي الجميلة التي ألبسها خصيصاً لهذا اليوم من الظهور بوضوح.

■■■

طرح ناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي فكرة «ما تنساش اللي قريت معاه» لاستعادة الزمن، والعثور على زملاء الدراسة.

وأخيراً

نماء... فكرة للشغف والعطاء

سعدية مفرح

ما زلنا بخير، ما دام فينا من يجتهد في اجتهاد كل الطرق التي تؤدّي إلى الخير. وعبر ابتكار وسائل جديدة وطرائق مختلفة تنبع من مشكاةٍ واحدةٍ مجللة بالعطاء، وتصب في مصبّات متنوعة، يجمعها الاستحقاق، ولا يمكن التفريق بينها وفقا لحساباتٍ عنصريةٍ من تلك السائدة في عوالمنا، بعيدا عن فكرة العطاء، بمعناها الإنساني وهويتها الإسلامية الخالصة.

شهدت، قبل أسبوعين تقريبا في الكويت، حفلا أنيقا نظّمته لجنة خيرية كويتية، اسمها لجنة نماء للزكاة والتنمية المجتمعية، بهدف تكريم الطلبة المتفوقين من المكفوفين. كانت لفتةً أكثر من رائعة في ظل ظروف انتشار فيروس كورونا الذي حدّ من إقامة مثل هذه الأنشطة الاحتفالية، والتي يحظى بها الطلبة المتفوقون عادة مع نهاية كل عام دراسي. ولكن لأن هذه الفئة المكافحة من الطلبة تمتاز بوضع خاص، فقد استحقت اهتمام لجنة نماء التي طبقت حرفيا معنى اسمها الجميل، بتعزيز هذا النوع من النماء المعرفي والخيري في نفوس هؤلاء الطلبة، وذويهم الذين حضروا معهم، وشهدوا حجم الاعتزاز الكبير بهم من جميع الحاضرين من الجهات المنظمة، ومن الضيوف أيضا.

وعلى الرغم من حرص القائمين على الحفل الذي شارك في تنظيمه، بالإضافة إلى لجنة نماء، كل من جمعية المكفوفين الكويتية ومعهد البناء البشري والهيئة العامة لشؤون ذوي الإعاقة، على تطبيق قواعد التباعد الاجتماعي، وتزويد المكان بكل وسائل الوقاية الصحية، من معقمات وكمامات وغيرها، إلا أن تلك القواعد لم تفلح في كسر الحميمية التي سادت أجواءه العامة، وشجعت جميع الحاضرين على المشاركة في تكريم الطلبة المتفوقين الذين تحدوا ظروفهم بشكل مضاعف خلال العام الدراسي المنصرم، نظرا إلى أن الدراسة كانت عن بعد وعبر الإنترنت. وهو وضع كان صعبا إلى حد كبير بالنسبة للطلبة المبصرين في كل المراحل. ولهذا كان تفوق زملائهم المكفوفين ممن لم يعتادوا على استخدام الإنترنت بشكل يومي واعتيادي، كما يفعل غيرهم، مثار إعجاب الجميع، وهو ما عبر عنه المدير العام للجنة نماء، سعد مرزوق العتيبي، في كلمته في الحفل، عندما قال «نجتمع اليوم لأجل تكريم كوكبة من المتفوقين من أصحاب الهمم الذين تفوقوا رغم العقبات التي واجهتهم في طريقهم، فمن ينظر إلى طلبة المدارس اليوم، ويرى الجهد الذي يبذلونه في ظل أزمة فيروس كورونا (كوفيد 19)؛ لأنهم يدرسون بطريقةٍ لم يعتادوا عليها ويواجهون العديد من الصعوبات، يستغرب عندما يرى أن هذه الصعوبات ملازمة للطلبة المكفوفين لأكثر من 12 عاماً، وبالرغم من ذلك تفوقوا. لذلك استحق هؤلاء

> حفل أنيق في الكويت لتكريم الطلبة المتفوقين من المكفوفين

الطلبة من أصحاب الهمم هذا التكريم..». أجمل ما رأيته في الحفل حرص أصحاب فكرة التكريم في لجنة نماء للتنمية المجتمعية على أدق التفاصيل التي توحي بأن التكريم ليس مجرّد واجبٍ يريدون تأديته أمام عدسات التصوير، ولا وظيفةً من وظائفهم يؤدّونها في سبيل استكمال العمل، ولا وسيلة من وسائل العلاقات العامة، حيث تطفو الادّعاءات على سطوح النيات عادة، بل هو الحرص الحقيقي على استحقاقٍ آمنوا به، فسدّدوا وقاربوا واهتموا بأدق التفاصيلً التي قد لا تخطر على بال أحد، لو لم يكن من المهتمين بالفعل بفكرة التكريم الحقيقي، وكما يليق بالمكرّمين ويناسب ظروفهم أيضا. من ذلك على سبيل المثال طباعة شهادات التفوّق ودروع التكريم التي وزّعت على المتفوقين بلغة بريل، ما زرع الفرح على وجوههم، وهم يتسلمونها ويتلمسون ما كتب فيها بأصابعهم، قبل أن يغادروا منصة التكريم.

شكرا لنماء الخير.. التي أثبتت لي أن الدنيا فعلا ما زالت بخير، وأن علينا جميعا واجب المساهمة في هذا الخير، عبر مساندة من يتصدّى له ويعطيه معظم وقته وجهده وشغفه ومحبّته الغامرة.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**